كلمة المركز النيجيري للبحوث العربية

تقديم كتاب "نحو تطوير التعليم العربي في نيجيريا"

الحمد لله الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسول الهدى وخير البرية معلّم الناس الخير سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم أما بعد:

يأتي هذا الكتاب القيم النفيس "نحو تطوير التعليم العربي في نيجيريا" لمؤلفه الباحث والأكاديمي النيجيري في علم اللغة واللسانيات الأستاذ عليّ أبولاجي عبد الرزاق في الإصدار السادس من منشورات المركز النيجيري للبحوث العربية ضمن مشروع سلسلة إنتاج المستعربين الأفارقة.

يتناول المؤلف في هذا الكتاب إشكالية جدّ خطيرة لا تزال تؤرق مضاجع المستعربين الأفارقة قديمًا وحديثًا، وهو واقع التعليم العربي في بلداننا الأفريقية غير العربية وآفاق تطويره لمواجهة التحديات العصرية المتجددة بما يسهم في مواكبة النهوض الحضاري للمجتمعات الأفريقية من جديد.

تعرض المؤلف بالتشخيص الوافي لواقع نظام التعليم العربي في أكبر دولة أفريقية سكانًا وذات كثافة إسلامية كبيرة وهي دولة نيجيريا، وأبرز في البداية الهدف الجوهري والأساسي

للتعليم العربي لدى النيجيريين، ثمَّ عرَّج على بعض المستجدات على الساحة المحلية والإقليمية وكذلك الدولية مما تضاعف به الإقبال على التعليم العربي لدى الشعب النيجيري المسلم. ثم أعقب ذلك وقفات نقدية من المؤلف لتقييم حالة هذا النوع من التعليم على ضوء الهدف الأساسي الذي اندفع بسببه النيجيريون للإقبال على العربية، وعقد مقارنات في ذلك لإبراز مدى تحقق تلك الهدف من فشله.

كما تعرض لواقع منظومة التعليم العربي في نيجيريا من الكتاتيب والمدارس العربية النظامية والمدارس العربية القائمة على جهود الأفراد والمنظمات بالإضافة للنظام المعمول به في تعليم العربية في المدارس الحكومية. وكذلك تعرض لمحاولات التعليم المزدوج حيث أبرز مزايا وعيوب كلّ من تلك الأنظمة.

فقد أجاد المؤلف وأفاد على نحو متميز في عدم اكتفائه بتقليب مضاجعنا بمجرد العرض والتوصيف لتلك الأوضاع، حيث تفضَّل مشكورًا بتقديم مجموعة من المقترحات والتوصيات ذات بعد عملي تطبيقي في رؤية استشرافية نافذة لتحسين هذا النوع من التعليم ليحقّق للمستعربين والمثقفين بالعربية من أبناء نيجيريا مكاسب مجتمعية كبيرة.

شكر الله للأخ عليّ أبولاجي عبد الرزاق هذا الجهد والذي يمثّل بالفعل قيمة حقيقية مضافة للمكتبة العربية وجهدًا علميًا رصينًا

يساهم به المستعربون في المسيرة الحضارية لتطوير أوضاعهم الثقافية ومجتمعاتهم بشكل عام، أجزل الله له المثوبة والأجر وكثّر من أمثاله، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...

الرياض

١٥ جمادى الآخرة ١٤٣٣ هـ / ٦ مايو ٢٠١٢م

الدكتور الخضر عبد الباقي محمد

مدير المركز النيجيري للبحوث العربية

وأستاذ الإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

المدخل:

الهدف الأساسي من التعليم العربي في نيجيريا

لا شك أن وضوح الهدف قبل القيام بأي عمل يعتبر من أهم عوامل النجاح. والعكس صحيح؛ حيث إن تخبط المرء وعشوائيته في أداء بعض المهمات لا يعود بالضرورة إلى عجزه الفطري بقدر ما يعود إلى عدم وضوح الهدف في ذهنه.

من هذا المنطلق يحتِّم عليَّ المنهج العلمي إلقاء نظرة فاحصة حول الهدف من التعليم العربي في هذه البلاد، وبالتالي نتبيّن إلى أي مدى تمَّ الالتزام بهذا الهدف في مختلف مناهج هذا النوع من التعليم في نيجيريا قديمًا وحديثًا.

يبدو في تصوري المتواضع وحسب تجربتي البسيطة أن التعليم العربي في نيجيريا وفي غيرها من بلدان العالم الإسلامي غير الناطقة باللغة العربية لم يكن له لحدّ الآن هدف أساسي آخر غير خدمة تعليم الإسلام، ابتداءً من الشعائر الدينية التي يتطلَّب أداؤها معرفة الحد الأدنى من اللغة العربية نطقًا على الأقل، كأداء الصلوات الخمس، مرورًا بتعلّم كيفية تلاوة القرآن الكريم المنزَّل بلسانٍ عربي مُبين بالنسبة إلى العوام، فالتعمق في معرفة معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة،

وأخيرا التضلع في مختلف العلوم العربية التي تعتبر وسائل مباشرة وغير مباشرة لفهم الإسلام، من علوم الفقه والتاريخ والأدب واللغة... إلخ.

من المعلوم أن الإسلام لم يدخل بلدًا إلا واصطحب معه اللغة العربية، الأمر الذي أدَّى إلى تعرّب بعض البلدان ذات الأصول غير العربية في إفريقيا مثل السودان والصومال وجيبوتي، حيث كان حال الثقافة العربية خلال قرون ازدهار الإمبراطورية الإسلامية العربية تمامًا مثل حال الثقافة الإنجليزية اليوم من حيث اكتساح الثقافات المحلية وانصهار الهويات القومية في الثقافة الوافدة، بفارق أن البلدان المعنيَّة تعرَّبت عن طواعية؛ في حين فُرضَتِ الثقافة الإنجليزية فَرْضًا أيام الاستعمار. أما البلدان غير المتعربة مثل نيجيريا فانتشار التعليم العربي فيها كان على قدر انتشار الإسلام[1]، ففي أيام الدولة الفودوية الإسلامية في شمال البلاد قبل الاستعمار انتشرت اللغة العربية انتشارًا واسعًا كاد شمال نيجيريا معه يصنف ضمن الدول المتعرِّبة، فقد كانت العربية بمثابة اللغة الرسمية للدولة، وكانت تجري بها جميع المعاملات الرسمية، ونبغ في ظل هذه الدولة الإسلامية علماء من أهل البلاد لا يقلّون علمًا عن نظرائهم

---

(١) لمعرفة المزيد عن الارتباط بين الإسلام واللغة العربية في نيجيريا، راجع: غلادنت، شيخو أحمد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف- القاهرة، ص: ٥٥-٥٩.

العرب، وأوضح دليل على ذلك تلك الإنتاجات الأدبية الراقية والمؤلفات العلمية الرصينة التي تركها هؤلاء العلماء من أمثال الشيخ "عبد الله بن فودي" صاحب "الحصن الرصين في علم الصرف"، والشيخ "محمد بللو بن عثمان بن فودي" صاحب "إنفاق الميسور في أخبار بلاد التكرور".

يمكن أن يعترض عليَّ أحد بأن عصر اتخاذ اللغة العربية مجرَّد وسيلة لفهم الدين قد ولَّى، وأنه قد استجدَّت أهداف أخرى يمكن تعلم العربية من أجلها، فقد باتت اللغة العربية اليوم إحدى اللغات العالمية التي يُسمح باستخدامها في أروقة مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة، إضافة إلى أن العلاقات الدبلوماسية بين الدول تفرض على كل دولة تعلم لغة غيرها، الأمر الذي يحتِّم علينا أن ندرج ضمن أهداف التعليم العربي في نيجيريا تيسير سُبل التفاهم مع العرب الذين اقتضت متغيرات العصر أن تكون هناك سفارات متبادلة فيما بيننا وبينهم، إضافة إلى أن الغربيين أنفسهم أعطوا للتعليم العربي حيّزًا في جامعاتهم الكبرى، وخاصة في سنوات ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

يمكن الإجابة عن هذه الاعتراضات بالنقاط الآتية:

١. القول بأن الهدف الأساسي من التعليم العربي في نيجيريا هو توظيفه لخدمة فهم الإسلام لا ينفي وجود أهداف أخرى ثانوية لا تطفو في السطح.

٢. هيمنة اللغة الإنجليزية على بقية اللغات العالمية في مختلف التعاملات الدبلوماسية والدولية تكفينا مؤونة ضرورة تعلم اللغة العربية قبل التعامل مع العرب، حيث ثبت بالتجربة أن المسؤولين العرب أنفسهم يرتاحون لمن يتعامل معهم باللغة الإنجليزية أكثر ممن يتكلف معهم لغة لا يجيدها ولا يتحمس لها أكثرهم، فما عليك غير مرور عابر بمطارات الدول العربية لتتأكد من مدى مصداقية هذا القول، فلا أعتقد أن المسافر النيجيري إلى الولايات المتحدة الأميركية أو المملكة المتحدة مثلاً مطالب بإتقان اللهجات الإنجليزية المحلية في هاتين الدولتين، حيث يعفيه من ذلك ضرورة إتقان الموظف الأميركي أو البريطاني في المطار للإنجليزية النموذجية، بينما الوضع في البلدان العربية على عكس ذلك، بل والأغرب في الأمر أن التحدث بالفصحى في مختلف الدوائر الحكومية محل تندر واستغراب لدى بعض الموظفين.

٣. من الإجحاف مقارنة اللغة العربية بالإنجليزية؛ بل وحتى بالفرنسية؛ من حيث العالمية، فاللغة العربية في نظري المتواضع لم يكن لها حتى الآن وجود عالمي خارج إطار كونها لغة دين متلازمة مع هذا الدين تلازم وجهي العملة الواحدة، وقد يكفيني دليلاً على ذلك أن الجامعات الأميركية والبريطانية والفرنسية فيها عدد كبير من غير الناطقين الأصليين

بالإنجليزية والفرنسية يحاضرون في هذه الجامعات بهاتين اللغتين، بينما لا يوجد من هذا النمط في جامعات الدول العربية ما يبلغ عدد أصابع اليد، ولعلّي لا أبالغ إذا ضمنت أنك إذا لقيت أي محاضر لا ينتمي إلى إحدى الدول العربية في أية جامعة عربية فتيقّنْ بما نسبته ٩٩% أنه يحاضر بغير اللغة العربية، فكأني بالعرب لحد اليوم لا يزالون ينظرون إلى لغتهم نظرة تقديس، ويعتقدون أنها حكر على أبناء الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية، وأن الإنسان الأعجمي مهما يبذل من الجهد في تعلم هذه اللغة سيظل بعيدًا كل البعد عن إتقانها إلى الحد الذي يؤهله للتدريس بها، بينما لو تأملوا في التاريخ جيدًا لتذكروا أن نسبة ذوي الأصول الأعجمية من علماء الأمة في جميع المجالات المعرفية المكتوبة باللغة العربية نسبة لا يُستهان بها، من أمثال سيبويه ذي الأصل الفارسي، وابن جنّي ذي الأصل الرومي... إلخ.

٤. الذي يتعلم أية لغة خارج أرضها يتعلم في الغالب المستوى المعياري من تلك اللغة، والحال عند العرب أن هذا المستوى المعياري لا يتقنه إلا نسبة ضئيلة جداً، حتى في أوساط المثقفين، ولعلَّ من لم يسبق له زيارة الدول العربية يستغرب إذا علم أن استعمال اللغة العربية الفصحى في المعاملات العادية مثار التندر والاستهزاء لدى أغلب أفراد المجتمع العربي.

٥. للدول الغربية أصناف من المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها؛ اقتضت من هذه الدول محاولة التعرف على ثقافة الشعوب العربية من خلال دراسة تاريخها ولغتها وآدابها، أما دولة إفريقية بحجم نيجيريا المتواضع من حيث التأثير في صنع القرارات العالمية فليس لها في الوقت الراهن على الأقل عير ولا نفير من هذه المصالح.

٦. لم يكن لأية دولة عربية من التقدم التكنولوجي ما يوجب تعلم العربية على غير أهلها، مثل ما الحال مع الإنجليزية والفرنسية مثلاً.

٧. إذا افترضنا أن شؤون الحج (وهي شؤون دينية غير خارجة عن إطار الهدف الأساسي المذكور) تتطلّب إعداد كوادر تتقن اللغة العربية للإشراف على هذه الشؤون في البلدان غير العربية، فإن التجربة أثبتت أن أغلب التعاملات في هذه الشؤون تتم إما بالإنجليزية وإما بالعربية الهجين (لغة فيه ما فيه).

إذا اقتنعنا بعد هذه النقاط أن الهدف الأساسي من التعليم العربي في نيجيريا إلى يومنا هذا لا يخرج عن إطار كونها وسيلة لفهم الدين، فلننطلق من هذا الهدف وغيره من الأهداف الثانوية -كما سيأتي- لتقييم وضع التعليم العربي في نيجيريا، ومن ثمّ طرح آراء متواضعة لتقويم هذا الوضع.